جهود المنظمة الإسلامية في إعادة كتابة لغات الشعوب الإسلامية بالحرف القرآني

الدكتور محمد سعيد هيكل
(الإيسيسكو)

تعرضت أمتنـا في تاريخها القريب إلى محنـة الإستعمار الذي بدأ بفرض سيطرته العسكرية والـسياسية على البلاد والعباد، ثم عمد إلى بـسط نفوذه الثقافي والـفكري وسعى إلى محـاولة محو الهويـة الثقافـية لشعوب الأمـة الإسلامية عـبر وسائل مـتعددة لا سبيل إلى تفصيلها في هذا المجال، وإن كنا نخص بالذكر هجمته على اللغة العربية والحرف القرآني التي كان يهدف من ورائها إلى التـمكين لـلغاتـه وخلق هوة ثـقافيـة بين الأجيـال المعاصـرة وبين تراثها المكتوب بهذه اللغـة أو بأحرف هذه اللغة، لما في ذلك من وشيجة ترتـبط بالدين وبأمجاد الماضـي. وكان من جراء ذلك أن عدل بـعض المسلمـين عن الحرف الـقرآني، وعـمد بـعضهـم إلى

التحوّل إلى الحرف اللاتيني كالأتراك والسواحليين وشعوب هوسا وفولاني وغيرهم، أو إلى الحرف الأكريليكي الروسي كما حدث للأوزبك والتاجيك والأذربيين وغيرهم من مسلمي آسيا الوسطى، ثم تبيّن فيما بعد ما نتج عن هذه العملية من آثار سلبية يمكن تلخيصها فيما يلي:

ـ حدوث حواجز علمية تحول بين هذه الشعوب المسلمة وبين ثقافتها الإسلامية الممثلة في كتاب الله وسنّة رسوله والتراث الإسلامي العلمي والأدبي الذي دوّن باللغة بالعربية أو بالحرف القرآني.

ـ الحيلولة دون استمرار عملية التفاعل والتمازج التاريخية التي نمت وتطوّرت بين اللغة العربية واللغات الإسلامية، ووقف أسباب التلاقح والتبادل بين العربية وأخواتها من اللغات الإسلامية في المفردات والأوزان والتراكيب بعد أن كانت قد اتسعت عملية التبادل لتشمل مختلف الألوان الأدبية وشتى فنون القول.

ـ حدوث فجوة ما فتئت تتّسع في التاريخ الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي لبعض هذه الشعوب فتوقّفت عملية التواصل الحضاري والثقافي بين جيل الآباء وجيل الأبناء، ويتجلّى ذلك في أن عديد المخطوطات التي تختزن تجارب هذه الشعوب وتراثها الحضاري الإسلامي وثقافاتها

وتاريخها، أضحت جامدة وغير مستغلة لانقطاع خيط التواصل عبر الحرف القرآني.

- حدوث حواجز نفسية تحول بين هذه الشعوب وبين التعليم الحديث الذي يستخدم فيه الحرف اللاتيني ولغات المستعمر وما يحمله من رموز ثقافية استعمارية مناقضة للهوية الإسلامية، فنتج عن ذلك استفحال مشكلة الأمية بين هذه الشعوب المسلمة.

واتساقا مع أهداف المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - الداعية إلى تقوية التعاون بين الدول الأعضاء في ميادين التربية والعلوم والثقافة، واستخدام التكنولوجيا المتقدمة في إطار القيم والمثل والمبادىء الإسلامية الثابتة، والمحافظة على معالم الحضارة الإسلامية، ودعم الثقافة الإسلامية الأصيلة وحماية استقلال الفكر الإسلامي من عوامل الغزو الثقافي والتشويه، فقد اضطلعت المنظمة ببرنامج يهدف إلى تنميط استعمال الحرف القرآني في كتابة لغات الشعوب الإسلامية، وذلك عن طريق تكييف الحرف القرآني واستخدامه في كتابة تلك اللغات بغية تمكينها من الخروج من العزلة واجتياز الحواجز المضروبة حولها على الصعيد المحلي والصعيد الدولي، وتمكينها من فتح المجال أمام ثقافاتها المكتوبة والشفوية حتى يتعرّف إليها العالم عن طريق المنشورات المطبوعة من صحف ومجلات وكتب ومراجع.

وتشير الحقائق أيضا إلى أن هناك فئات كبيرة من السكان في إفريقيا وآسيا يستعملون في مكاتباتهم اليومية أحرفا غير رسمية (بالنظر إلى اللغة الرسمية). ومن نافلة القول أن عيون التراث الإنساني في هذه البقاع لم يتم الإحتفاظ بها ولم تصل إلينا إلا بفضل الحرف القرآني الذي تم تسجيله به.

واستمر اسستخدام الحرف العربي في المدارس القرآنية وفي كتابة اللغات المحلية في هذه البقاع إلى يومنا هذا، وتشير الإحصائيات إلى أن ثلثي الأطفال في هذه الدول يتلقون تعليمهم بهذا الحرف، واستأثرت هذه الظاهرة باهتمام المنظمات المعنية بقضايا التعليم والثقافة وعلى رأسها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة التي وضعت برنامجها مستمرا في خطط عملها المتعاقبة، يهدف إلى :

- صقل الحرف العربي وتطويره صوتيا وتقنيا وتطويعه لكتابة لغات الشعوب الإسلامية المتعددة بطريقة علمية متقنة.
- المحافظة على التراث الحضاري للشعوب الإسلامية وتنمية لغاتها وثقافتها حتى تتمكّن من مسايرة حضارة الثورة العلمية والتكنولوجية وتطوّر الاتصالات والمواصلات.
- ربط لغات الشعوب الإسلامية بعضها ببعض من خلال اتخاذها لحرف واحد هو الحرف القرآني، وربطها من ثم بلغة القرآن العربية، وتهيئة وسائل المثاقفة والتبادل بينها كلها.

ـ تقليص نفوذ اللغات الأجنبية الدخيلة على الشعوب الإسلامية وتخليصها تدريجيا من الهيمنة السياسية والثقافية والاقتصادية الأجنبية.

ـ محاربة الأمية التي تضرب بأطنابها في البلدان الإسلامية من خلال تطوير لغاتها وكتابتها فوق المنظور الثقافي المتّسق مع دواعي الهوية والذاتية، ووفق المنهج التربوي القائم على أساس استخدام اللغة الوطنية في عملية التعليم بحسبانها أنجع الوسائل وأقصر السبل للوصول إلى هذا الغرض وبأقل تكلفة.

وتم في سبيل تنفيذ هذا المشروع عقد سلسلة من الندوات والإجتماعات في كل من باماكو وداكار والخرطوم والرباط وكوناكري وجدة وصكوتو في الفترة الممتدة من 1987 إلى 1992 ، تمخّضت عنها نتائج هامة تمثلت فيما يلي :

ـ توحيد الحروف المختارة لكتابة عشر لغات من غرب إفريقيا بالحرف القرآني هي : الهوسا والكانوري والتماشق والبمبرة والسوسو والسونكي والولوف والصنغاي والفلفدي واليوربا. وست لغات من شرق إفريقيا، هي : القمرية والسواحلية والأرومو والدينكا واللوقندة واللكبارة.

ـ تحديد تردد الرموز للأصوات غير العربية لهذه اللغات بغية التوصل إلى تصميم أجهزة وآلات لطباعة هذه اللغات بالحرف العربي.

وبعد القيام بمختلف الدراسات التقنية على الحروف التي تم تنميطها وتوحيدها والاتفاق عليها وإجراء الدراسات الإحصائية، توّجت هذه الجهود بصناعة أول نسقة طباعية للتصفيف اليدوي وأوّل آلة كاتبة تصلح لطباعة نصوص باللغات الإفريقية المندرجة في إطار المشروع بالإضافة إلى اللغة العربية.

وقد تم في هذا الإطار تصنيع 500 آلة عربية إفريقية قام البنك الإسلامي بتمويلها وإهدائها إلى عدد من المؤسسات التربوية والتعليمية في إفريقيا. وقامت المنظمات الإسلامية بعقد عدد من الدورات لتدريب الراقنين الأفارقة على استعمال هذه الآلة. وكان من الآثار الإيجابية المباشرة لهذه الجهود، أن انطلقت تجارب ميدانية في بعض الدول الإفريقية تحمل بوادر نهضة حضارية تستند على الحرف القرآني، تصل ما انقطع إن شاء الله بين حاضر هذه الشعوب وتراثها الثقافي الإسلامي المتمثل في آلاف المخطوطات المكتوبة بالحرف القرآني. وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى تجربة ولاية كانو في شمال جمهورية نيجيريا الإتحادية، حيث قررت وزارة التربية الولائية ووكالة التعليم الجماهيري بالولاية، بفضل هذا الإنجاز التقني المتمثل في هذه الآلة الكاتبة، إدخال تعليم لغة الهوسا المكتوبة بالحرف القرآني ضمن مناهجها. وتجدر الإشارة أيضا إلى تجربة مشروع البرافد PRAFD بفوتاجالون بجمهورية غينيا، فهي تجربة رائدة في

مجالها. فقد اضطلع هذا المشروع ابتداء من سنة 1990 ببرنامج طموح يهدف إلى محو الأمية بواسطة لغة البولار المكتوبة بالحرف القرآني المُنمَّط، وانطلق المشروع في الجزء الشمالي الشرقي من هضبة فوتاجالون على مساحة تبلغ 21534 كيلومترا مربعا، تغطي محافظات كوبيا ومالي وتوقي بأكملها، إضافة إلى الأجزاء الشمالية من محافظتي لابي وليلوما، وهي مناطق تبلغ في مجملها نسبة 40٪ من مساحة غينيا الوسطى أي ما يعادل 9٪ من المساحة الكلية لجمهورية غينيا.

وتم تحديد 1370و1100 وحدة أسرية، ضمن مجموعة سكانية ريفية تبلغ نصف مليون نسمة. وشمل البرنامج نحو 4626 قرويا (منهم 648 امرأة) وكانت نتائج تقييم المشروع في سنة 1994، كما يلي:

- تخريج 3320 دارسا من بينهم 375 امرأة.
- إنتاج 60 كتيبا لمرحلة ما بعد محو الأمية وفي مواضيع شتى تناولت التربية الإسلامية والزراعة والرعي والتربية الصحية.
- طبع 14 عددا من النشرة الإعلامية (لوال) بمعدل 500 نسخة لكل عدد.
- ترجمة معاني القرآن الكريم وكتاب الأخضري إلى لغة البولار المكتوبة بالحرف القرآني.

ويشار في هذا الصدد إلى أنه قد تم تزويد مشروع برافد

بعشرين آلة كاتبة عربية إفريقية، وقد استفاد المشروع من هذه الآلات وارتقى أداؤه كمّا وكيفا. وتبدو أهمية ذلك كله في أن العودة إلى الحرف القرآني في هذه البقاع يمثل خطوة هامة في اتجاه تجاوز الهوة التي حدثت بين جيل الآباء والأبناء فحالت دون التواصل الثقافي والتاريخي بين الجيلين والمتمثلة في اصطناع الحرف اللاتيني في كتابة لغات هذه البقاع وما ترتّب على ذلك من حواجز تحول دون الإطلاع على التراث المخطوط بالحرف القرآني والذي يختزن تجارب هذه الشعوب وتراثها الحضاري.

وقد تم في إطار هذه الجهود أخيرا، عقد ورشة عمل إقليمية في مدينة لابي، بالتعاون بين المنظمة الإسلامية ومشروع البرافد، بهدف تقييم التجارب الإقليمية لمحو الأمية بلغات الشعوب الإسلامية المكتوبة بالحرف القرآني. وقد شارك في هذه الورشة التي انعقدت في الفترة 19 ـ 21 سبتمبر 1997، خبراء ومسؤولون ينتمون إلى غينيا والسينغال ومالي والنيجر ونيجيريا.